التدريس والانفتاح

مدخل توصيفي إلى «علم الأخلاق التربوي»

في كتاب ماكسين غرين: تحرير المخيلة

* وردت المقالة أصلاً تحت عنوان «Teaching for Openings»، من كتاب:
Green, Maxine. Releasing the Imagination-Essays on Education, the Arts, and Social Change. San Francisco: Jossey-Bass Publishers. 2000. (pp. 109-121).

رغم فداحة ما يمكن أن تتركه العبارة من شعور بالأسى أو الحنق، أو الإحساس بهما مجتمعين،يمكن للمرء القول بأن التجربة التربوية الفلسطينية لا تزال تراوح الحيز الحصري والحرفي لمفهوم «التجربة». بمعنى أنها لم تجاوز ذلك الحيز إلى فضاء إنتاج المعرفة التربوية كتحصيل فكري استخلاصي للواقع التجريبي. فما يكتب في السياق التربوي الفلسطيني، إنما هو توصيف إجرائي للفعل التربوي الذي كان، عما قليل فقط،فلسطينياً أو كاد، وليس صياغة معيارية لما أنتجه التجريب من معرفة. وبصرف النظر عن حجم الاتفاق أو الاختلاف حول ماهية العلة، إلا أن ذلك لا يغيِّر من الواقع الموضوعي لهذه التجربة شيئاً من حيث قيمة المنجَز الفكري. مؤدّى القول هنا، أن خداجة التجربة الفلسطينية، والعربية عموماً،في ميدان الإنتاج المعرفي للفكر التربوي، تتطلب إطلالة واعية على ما تم إنتاجه عالمياً في هذا السياق. ولعل مهمة هذا التقديم والمقالة المترجمة التالية له، تنحصر في الإضاءة على مادة معرفية تربوية تناتجت عن تجربة تربوية، بقدر ما تضيء أبجدية التعرُّف على الآلية التي يمكن أن يتم من خلالها إنتاج شيء من هذه المعرفة.

المقالة التالية هي الفصل التاسع من كتاب ماكسين غرين: «تحرير المخيلة». وهي،برغم ما يوحي به عنوانها،من اشتغال بالمصطلح الأخلاقي في سياق تربوي، إلا أنها لن تكون كذلك تماماً، فما من متسع في هذه المقالة لبحث الفكرة الأخلاقية في السياق التربوي بتجريدية البحث الأخلاقي من حيث توجيه الاعتناء إلى فكرتي الخير والشر، ماهيةً ومعاييرَ للقياس،بحيث يتم استيلاد المعياري من النظري...لكنها بأكثر من ذلك، ترتكز إلى ما عرفه بعض الرواقيين بـ «دينامية اقتناء الفضائل»،أو ما عُرف في الفلسفة العربية بـ«تحصيل العلم الذي تحته عمل».فماكسين غرين في هذا الفصل من كتابها، تتطلع إلى اقتراح آلية جمالية في قراءة النص، أي نص،لإنتاج حكم أخلاقي على صواب الرأي أو خطئه في النص المقصود الذي تعاد كتابته ثانية من خلال قراءته، وفي الذات التي تستبطن النص و«تُفَطِّره» مفتاحاً لفك شفرتها هي،فتحيله مرآة لها وتنحال هي ذاتها مرآة تقرأ النص.

ما يجعل هذه المقالة تندرج في السياق التربوي، لا في سياق النقد الأدبي أو علم الأخلاق، أمران:أولهما،اشتغالها أساساً على هذه الآلية المساءلاتية كتقنية تربوية لتعميق الحوار بين المعلم وتلاميذه من جهة، وللأخذ بيد التربوي لرؤية ذاته ومقاضاتها من جهة أخرى. وثانيهما،أن كاتبة المقالة تربوية بامتياز. فماكسين غرين هي إحدى أساتذة كلية التربية في جامعة كولومبيا، حيث تعمل منذ ما يجاوز خمسين عاماً على تدريس الفلسفة والعلوم التربوية والأخلاقية.كما أنها تعد واحدة من النساء القلائل اللائي استطعن فرض حضورهن بامتياز في حقل الأكاديميا الأمريكية عبر تدريسها في معظم الجامعات الأمريكية المرموقة على الصعيدين التربوي والبحثي، وتقلُّدها لأعلى المناصب، وحصدها لأرفع الأوسمة والجوائز والألقاب الفخرية.فقد شغلت ماكسين غرين رئاسة جمعية الفلسفات التربوية، والمؤسسة الأمريكية للدراسات التربوية، والمركز الأمريكي للبحوث التربوية.كما أنها تعمل الآن على تأسيس مركز الفنون والخيال الاجتماعي والتربية في كلية المعلمين بجامعة كولومبيا. وقد أمَّن لها هذا العطاء الواسع في موطنها، وبخاصة في مجال الكتابة والتأليف، شهرة ومكانة عالميتين،رغم عدم ممارستها لمهنة التدريس خارج الولايات المتحدة إلا لماما.

«تحرير المخيلة» هو كتاب ماكسين غرين الأخير بعد كتابها الفريد (ديالكتيك الحرية،1988)،وقد جاء «تحرير المخيلة» خلاصةً لبحث فكري ومعرفي راقٍ دام أكثر من عشر سنوات في حقول الفلسفات التربوية، والفكر الاجتماعي،وعلم الجمال، ونظريتي الفن والأدب. وعلى الرغم من نشر غرين لمئات المقالات والأبحاث التربوية والفكرية في أكثر الدوريات العالمية رواجاً وأرفعها مكانةً،كلٌ في سياق

تخصصي بعينه،إلا أن صِنافية البحث الفكري والجمالي في «تحرير المخيلة» تجعل منه عملاً معرفياً بامتياز جرّاء مفارقته للعديد من نمطيات الكتابة السابقة،إذ يدني،باقتدار،احترافية الأكاديميا وأصولية البحث العلمي إلى شعرية الكتابة الفنية ورهافة التنظير الجمالي،لا هابطاً بالأولى من سماء استيلاد فكرتها إلى أرض اجترارها، ولا مخرجاً الثانية من حدّ المعاش إلى حدّ الفانتازيا.

وعليه،فإن كتابة «تحرير المخيلة» هي كتابة استثنائية لكتاب استثنائي.أما استثنائية الكتابة،فلأنها بحث عن فكرة الخير خارج التجريد المعتاد للعلوم الأخلاقية، بحث عن «خيرية الخير»،إن جاز التعبير،وعن تحصُّلها جراء البوح بتشظِّيات الذات في السيرة الذاتية في خير السلوكات وشرها، صائبها وخاطئها على حد سواء.إنها «كتابة لسيرة ذاتية قيد الكتابة، وقيد الحدوث»،كما تصفها غرين في مقدمتها التي تُمَظْهِر الكتاب كمحاولة لاستجماع الهوية وتفكيكها في آن معاً، محاولة للإجابة على إلحاح المطلب الذهني بحصر المرجعيات وتقنين فعل الانتماء،ومحاولة، كذلك، لنزع الوثوقية عن شرف المعنى في المشارب التي تم اختيارها على امتداد نصف قرن من المجازفة والتحدي في حقل الفلسفات والسياسات التربوية..إنها،باختصار،محاولة للتَّمَرْئي في غير مرآة الذات بغية إضاءة مرآتها.وهي استثنائية،من جهة أخرى،جرّاء حشدها لكم هائل من الأدبيات المنتجة ابتداءً،وعلى يدي نخبة المفكرين والفلاسفة العالميين،في أكثر من خمسة حقول معرفية أخرى،وتوظيفها ببراعة ودونما تكلُّف أو حشر لخدمة السياق الموضوعي لفكرة الكتاب. وأما استثنائية الكتاب،ففي عدم إضماره لما يتغيَّاه من تأليب لا ينضب على مراس «المحادثة الصامتة مع الذات»،المحادثة التي تخرُج بفعل المساءلة من مَرَضِيَّة جلد الذات إلى روحانية مناجاتها المُنْتِجة، وتنأى بفكرة البوح عن ادعائية التواضع وتموُّضة الاعتراف الأستاذي بـ«الذئب-الفضيلة!»،نحو استثماره في فك شفرة المرآة المخبأة رموزُها في النص الذي ستعاد كتابته من جديد، نص الذات الناجز والوثوقي التي حالت مناعته الأخلاقية دون المساس به وأدت،بالتالي،إلى استغلاقه.

هنا أقترب أكثر من موضوعة المقالة على وجه التحديد،حيث تبرز ثيمة المساءلة كثيمة مركزية تساعد التربوي على مفارقة المرسى والبدء من جديد في سياق نقدي وحواري جماعي، يتم من خلاله تجاوز القارّ، وإعادة تعريف «المعرفة المُعَرَّفة ثقافياً»، تلك المعرفة التي قد تعيق فكرة الإدماج الاجتماعي وتعزز الفردانية والتذرر، رغم أنها،من ناحية أخرى،تسهم في فقدان حرارة الصوت الذاتي وتخلخل ثقته بفاعليته وأصالته. وبذلك،فهي تخفض من سياج الهوية الذاتية لا لغرض حلولي مطلق في الهوية الجماعية تنعدم فيه الخصوصية،وإنما بغرض السعي إلى تحقيق كمال الصورة الذاتية في مرآة الآخر وما تقترحه ذائقة مرآة الآخر من تعديلات للصورة، أو لخيال الصورة المتموضع في النص المكتوب والذي تتم قراءته بصورة جماعية.وبذا يغدو فعل المساءلة فعلاً فريداً، يقصي الفرد عن جلد الذات وتقديس فكرة التألم في ذاتها ولذاتها على ما كان، ويوجهها إلى تخليص معدن الذات من شوائبه التي كانت قد تخللته لحظة الخطأ المحض والمتعمد، أو التصور الخاطئ للخطأ على أنه الصواب.

فرادة هذه المقالة ليست في جِدَّة موضوعها، ففكرة المساءلة الذاتية والضمير المستدام المنتج للخير الجماعي فكرة قديمة في علم الأخلاق وعلوم اللاهوت، لكنما تكمن فرادتها في طرح اقتراحات جديدة لهيئة المساءلة وفعل البوح:إذ ترى أنه من الضروري استدعاء المعرفة كتدفق تاريخي لمادة الذاكرة التي يجب ترميمها على الدوام، شريطة أن يتم ذلك الاستدعاء أو النظر إلى مادة الذاكرة «من لامكان»، أي بتجرُّد مطلق من الميول، الأمر الذي لا تؤمِّنه إلا قراءة جماعية لسبر المعنى تقوم على دعامتين:أولاهما،نضح الذاكرة الفردية عند قراءة النص الذي أنتجته هذه الذاكرة.والآخرى،تفكيك شفرة هذه الذاكرة عبر الجدل الجماعي، لكشف باطن الذاكرتين في آن معاً. بمعنى أن فعل القراءة يجب أن يتحول إلى فعل ميتا-تأويلي للنص لكي يتم تحويل النص إلى ذاكرة مشاع، أو إلى «نص مفتوح» بتعبير الكاتبة.وهنا،تجدر الإشارة إلى إشكالية قرائية لنص غرين نفسها في هذه المقالة، فأسلوبها،رغم نعمائية الطرح عموماً، شديد التفاوت:فمن أبسط مستويات الكتابة الداعية إلى قراءة «النص المفتوح» من خلال الدعوة إلى نضح الذاكرة الفردية، وتفكيكها جماعياً لإعادة سبكها في مرآة الجماعة، تنتقل ماكسين غرين إلى التعبير الشعري عالي الترميز والتجريد عند اقتراح «تأويل النص» أو «إعادة كتابته» عبر دعوتها إلى تأطير اللاتكوُّن اليقيني للمعرفة، فرديةً كانت أم جماعية، لإخراج الذات المُفكِّرة من حدِّ الخفاء إلى حدِّ التجلِّي، أي الارتقاء بها من طور «التعيُّن» الهيولي إلى طور التمظهُر الوجودي المَقايِسي.لكن،مؤدّى القول واحد في الحالتين،فلنلتقطه بأي مستوى نشاء، ولنقرأ النص عند تمام انفتاحه علينا وانفتاحنا عليه.

بشيء من الادّعاء والمجازفة، اخترتُ أن ألج هذا الفصل بمقولة لميشيل فوكو من «الخطاب حول اللغة»: «لقد وددت لو انزلقتُ بعفوية تامة إلى هذه الندوة...ولكم رغبت بأن تحتويني المفردات، منطلقاً للبعيد، إلى مارواء كل البدايات الممكنة. ففي لحظة القول، أودُّ إدراكَ صوتٍ لامسمَّى، يتقدَّمُني، وبالكاد يقتادني، موقعاً إياي في شراكه، إذ تأخذ وتيرته بالارتفاع شيئاً فشيئاً ليستقر بي في فجواته،حيثما لا ناظرين سواي،وكأنما قد توقفَ الكلامُ برهةً،على قلقٍ،ليومئ إليَّ أن لا بدايات له أبدؤها هناك، لكنما انبثاق ذاتيٌّ للخطاب،منِّي» (215،1972).

لقد حاولت أن أبقى ضمن ما أطلق عليه فوكو، في مكان آخر،«النظام المؤسَّس للأشياء»–الأشياء البيداغوجية، أو أشياء التربية الليبرالية (xxi،1973).وهنا، أجدني مسوقة إلى تأكيد لازمانية ما أقدمت على حبه على امتداد سنوات خلت، وعلى ما اخترت التفكير فيه بوصفه منشأً ذاتياً لي، مطلقة لنفسي العنان أن أُحمّل على الحديث العظيم الذي ابتدأه الآخرون (وتحقق، في واقع الأمر، على أيدي هؤلاء الآخرين) والذي لن أكون أول كافرةٍ به.لست مجبرةً على الشروع بأي شيء، لكنني محتاجةٌ فقط إلى مُساكَنَةِ ما قاله العظام والحفاظ على انغماس جزئي فيه.

لكنني،بعدئذ، أفكر فيما يمكن للبدايات أن تفعله مع الحرية، وكم سيكون تأثير الفساد، باختلاف تعريفاته وتنوُّع أشكاله، على الوعي بإمكانية امتلاك الكثير للعمل عند تعليم الجنس البشري والاهتمام به.وكذلك، أعتقد أنني،وغيري من المعلمين، إن أردنا تأليب طلابنا على خرق السقوف المألوفة وتجاوز الوثوقيات، يتوجب علينا،ابتداءً، أن نمارس نظام الخرق على كل قارٍّ تم التأسيس له في حيواتنا نحن، موقظين في ذواتنا،دوماً،رغبة البدء ثانيةً. أستذكر،هنا،مقولة ميريليو بونتي بأن «الاختيار،وحده،هو الذي يحررنا من انتمائنا الرخو للمرسى» (456،1967).كما تلازمني، على الدوام، مقولة وولف حول «طاقة احتمال الصدمات»، تلك الطاقة التي ربما جعلت منها كاتبة. فقد أسهم كلاهما في صياغة حبكة قصتي الذاتية، وفي الفصام الوجداني لاختياري الخاص أن أعمل على نحو من الانفكاك من المَرسى وتحريض الآخرين على الانفكاك معي..ذلك كي نؤول جميعاً إلى ماهية مغايرة، وننخرط في جدل الوصول إلى ماوراء ما نحن فيه.

ومع ذلك،يتوجب علي الاعتراف بمدى صعوبة مواجهة الضوابط ومبادئ الإقصاء والإنكار التي أتاحت لي مساحة معينة من إطلاق التفوهات وتحجيم الآخرين أو حجبهم، إذ إنني لم أتوصل بسهولة إلى المصطلحات التي تصف الطرق المختلفة التي كثيراً ما تتبع التربية من خلالها خطوط الطبقة والعرق والجندر، وتسمح أو تحظر التعبير عن خبرات متباينة للناس. متأملةً حديث كارين فاينلي حول التسميات والمسكوت عنه بخصوص الأطفال الذين اكتشفوا على يدي ميشيل فاين الذي عبَّر عن «إرهاب الكلمات» (159،1987)،وهو ذاته ما أطلقت عليه ماينا شايوغينسي «المصيدة» التي تنصب بالكتابة الأكاديمية للطلاب الملتحقين بجامعة مدينة نيويورك (71،1977). إنني أقول الكلمات، لكنني أجد أنه من الصعب الفكاك مما لدى الكثيرين منا من إضمارات قارَّة ومعترف بها، حيث إن «كل نظام تربوي إنما هو وسيلة سياسية لتحقيق انتحال الخطاب أو تحويره عن طريق ما يحمله هو ذاته من معرفة وقوى» (فوكو 227،1972).

عندما رغبنا، نحن المعلمين، أن نعتقد بأن التربية إنما هي وسيلة لمنح كل واحد منفذاً لأي نوع من الخطاب الذي يمكن أن يقع في دائرة تفضيله، وعندما أردنا الإيمان بأن المعرفة تحصيل شخصي وباب للمعنى الشخصي في آن معاً..استهلك منا الأمر جهداً طائلاً لإدراك كيفية انخراط المعرفة، وبعمق،في علاقات القوة، وكيف أنه ينبغي إدراكها متعالقةً بالعالم الاجتماعي ومندرجة ضمن سياقاته. فقد غدا واضحاً، بما يكفي،أن البشر يولدون في معرفة مُعَرَّفةٍ حضارياً، تلك المعرفة التي يُكتَسَبُ بعضُها في طور النشأة ودورة الحياة الاعتيادية، فيما لا يُدرَكُ بعضها الآخر، تماماً،إلى الأبد.ولعل الأشخاص الذين ليس لهم نصيب في استيعاء بعض هذه الثقافة تتموضع ولادتهم لعائلات فقيرة علةً لذلك، من حيث بعد هذه العائلات عن المجهودات المؤسساتية لإدماج الناس ضمن تشاركية منتِجَة في المجتمع. وقد تكون علة عدم استيعائهم لتلك المعرفة،كذلك،وضعيتهم الاجتماعية خارج الاتجاه السائد في المجتمع لأسباب عدة تقف الهجرة والأقلياتية على رأسها. فالعديدون ممن يتحولون إلى موضوع للمقاطعة أو التهميش يُزَجُّونَ إلى الإحساس بفقدان الثقة بأصواتهم الذاتية، وطرائقهم الخاصة في إنتاج المعنى، كما أنه كذلك، وعلى وجه القطع، لا تتاح لهم بدائل تمكِّنهم من البوح بقصتهم أو بلورة حكايتهم التاريخية وتأريض وجهةٍ جديدة لما احتازوه سلفاً من معرفة. أما من هم على طرف النقيض، فإنهم لا يسائلون، إلا لماماً، لغة السيادة والفاعلية والقدرة على التأثير في مناشئهم البكر، ولكنهم،رغم ذلك، يبحثون عن ضروب أكثر ملاءمةً من الخطاب لثقافةٍ أكثر فتوَّةً أو لبرهةٍ تمردية أو استيائٍ مراهق. فقلما نرى مشاركة فعلية في بلورة المعرفة، وقلما نرى،كذلك،مساءلة للسياق المعرفي(اللغة التقنية على سبيل المثال)،أو للخطاب الخطي أو التحليلي، أو الخطاب الذي يفترض الوجود الموضوعي لما يمكن أن يؤخذ على أنه عالم «اعتيادي».

سيعمل هذا الفصل (من الكتاب) على تناول التعليم الذي يثير المساءلات النقدية حول الأشكال المختلفة من المعرفة القرائية واللغات المفضلة والتنوع اللغوي، وعلاقة هذه، جميعاً، بالسياق الثقافي الأرحب. فالمعارف القرائية السائدة، والخطاب عموماً، يجب أن تؤخذ كمناسبات للدراسة والتعبير، وذلك لغرض الكشف عن خامات إضافية في حدودية التجارب المعاشة، تلك التعددية التي تميز مجتمعنا اليوم. إذ إن الأشخاص الذين يفتقدون للمنفذ إلى لغة القوة والعاجزين عن التعبير الواضح حتى عن حيواتهم المعاشة»،من المستبعد عليهم تجاوز حدود الحصرية أو المنطق العرفي للآراء، والوصول إلى مناطق أكثر انفتاحاً« (هايدغر،1968،13).أجل،أن تصبح متعلماً هو،أيضاً،ميدان للتسامي على المعطيات الناجزة والدخول إلى حقل الممكنات.ولعلنا لا نبلغ تحقيق ذلك إلا عندما

نبدأ بوعي الفجوات والتصدعات في بنية ما اعتقدنا أنه عين الحقيقة.إذ يتحتم علينا أن نكون واضحين بما يكفي، وأن نجهد أنفسنا كثيرا حتى نسمي ما لنا:الجوع، السلبية، اللامأوى، «الصمت». ربما تكون هذه هي أهم ما يتم اعتباره على أنه من مواضع القصور الذاتي في المسعى الإصلاحي، إنها تتطلب ضرباً من التخيُّل حتي نتمكن من إدراكها، وحتى نحس بما يكتنف عوالمنا المعاشة من نقص جرّاءها.وباستدعاء صوت د.راياوكس،في نهاية «طاعون كامو»،وهو يتحدث عن أولئك الأفراد «غير القادرين على أن يكونوا قدّيسين،لكنهم يرفضون الانحناء للطاعون،باذلين مهجهم للتعافي منه»(1948،278). يتبين أنه ما من بطولة ولا تضحية أعظم من أن نُمَظْهِرَ أنفسنا كأناس عاديين.لكننا نمتلك الطاقة للرفض والكفاح عبر هذا الطريق من خلال رؤية أنفسنا بوضوح وبعيوننا نحن،والتحدُّث بأصواتنا الخاصة، تماماً كما فعل د.راياوكس.

في حالتي الخاصة،منغمسةً فيما كنتُ فيه ومنغمسةً فيما أريد أن أكون، أخذ الأمر سنوات عدة قبل أن أكتشف بأن العرف الكبير، الذي كان هارولد بلوم قد دعاه بـ «المبدأ الغربي،كتب ومدارس العصور»(1994)،يتطلب أن أنظر بعيون الآخرين، وأن أتمكّن مما كان يعدُّ، آنذاك،طريقةً وثوقية لاستجلاء العالم. لقد صدمني اكتشافي بأن ما كنت أعتقده كان كونياً، النوع التجاوزي والطبقة والعرق، لقد كان كل ذلك مجموعة من وجهات النظر مجتمع بعضها إلى الآخر. لقد اعتبرت منشئي في بعد تقليدي من الحوار الثقافي ضرباً من المنَّة،حتى ولو من خلال تيار ضئيل فقط بين تلك الأصوات غير المسماة والتي دُفِعت إلى الحضور بشكل باهت لأولئك الذين لا ينتمون كليَّةً لدرب هذه الفكرة.أما الآن،وسط هذه المباهج المُتَذَكَّرَة والرغبات التي لا تزال تحتفظ بفتنتها في حقل اختصاصي، فأجدني على المحك للتفكير في نمط تفكيري وكلامي وخطاباتي التي كنت قد انغمست فيها من قبل.

لقد كان ذلك يعني أن أطيح بكل العوامل الحاسمة في حياتي، شأن الإغواءات، في ذلك،شأن الضوابط تماماً.لقد ناوأتُ،بشكل واع،محظورات معينة، وولاءات كذلك، وضوائق ومخاوف وخطايا.ولقد اكتشفت أنه بواسطة هذا النوع من المقاومة،وحسب،نستطيع أن نوسع الفضاءات التي نأمل، عبرها، أن نختار ذواتنا.فأن نصادف جداراً أو عائقاً في طريقنا وأن نختار، بسذاجة،مسلكاً آخر، يعني الإذعان ومجانبة المقاومة.وهنا،يغدو الحديث عن الجدل حديثاً عن قوى المقاومة:تلك العوامل التي تكبح جماحنا في المكان متموضعة كحائل في طريق نمائنا، والعوامل التي تؤلِّبنا على التصرف بمقتضى رغباتنا لاختراق العقبات، ولتحقيق الاختلاف، وبلوغ الكينونة.إن عدم الاعتراف بشيء ما كعقبة في طريق نمائنا ربما يكون، بحق، إذعاناً للجور، وبخاصة إذا كنا نحيا في ظروف إضطهاد وإذلال. أما البديل، فلربما يكون ما وصفه ميلان كونديرا بـ «خفَّة الكائن التي لا تطاق» (1984)،ذلك الشعور بالعيش في عالم العارض ودائرة اللامتوقع دونما استجلاء احتمالات واضحة للآتي.ولربما يكون مجرد خضوع تام للقدرية، ولما أطلقت عليه شخصيات كونديرا «إحساس الضرورة المهيمنة» (1984،193).ولربما، وهذا ما ابتغيت الوصول إليه، يكون البديل الحياة المعاشة توتراً وضرباً من الحماسة، إلى جانب كفاح جدلي عصي على الفتور إلى الأبد، إذ إنه في واقع الأمر، ما من حاجة للتنبُّه إلى حيواتنا إن كان بالإمكان أن تكون آيلة إلى الفتور أو التلاشي.

عندما أفكر ملياً في تاريخي الشخصي، أكتشف أنه ما من سبيل أبداً لقهر ما فيَّ من قلقٍ تماماً، هذا القلق الناشئ عن التوتر بين حبي الخالص ، فلأقل،لأعمال فلاوبريت وبودلير وميلافيلي وسيزانني ودبيوسّي وستيفنز، ويقيني الخاص بأن تخيلاتهم وأصواتهم الذكورية التي تتطلب، شأنها في ذلك شأن أي صنف من الكلام، تنوعاً هائلاً من طرائق التأويل وفك الشفرات، ليس إجلالاً للحجب التي تبدو، للوهلة الأولى،تنويراً موضوعياً، لكنما لأنها موضوعية «هناك».لقد كانت طاقتي الافتراضية،والمتعلَّمَة أيضاً، على استكناه أعمالهم على نحو يمنحني شعوراً بأنني واحدة منهم، هي التي جعلتني واحدة من هؤلاء الفنانين.حينها،اعتقدت أنني،باتباع القواعد،سأحيل رؤاهم لتكون خاصتي. أحس اليوم،وكثيرون غيري، بأن مجاز «الاستكناه» لم يعد فاعلاً، حاله حال كثير من الرؤى الاستشرافية.ولذا،أجدني الآن ملزمة بسبر هذه الأعمال وتحقيق مغزاها بإصغاء السمع إلى أصوات أصحابها، لكنما ضمن مدى خاص من تحوُّلية الرؤى التي تتضمن ما يجسده وعيي الذاتي. فكيف يكون لي،إذن،أن أخترق دوائر بَشَّرتُ أنا بخلقها ؟وماذا لي أن أفعل حيال «أحكامي الجزافية» بتعبير غادامير؟ (1976،9).إنه مع ذلك النوع من القلق ووسط هذا الاستجواب الذاتي ظفرتُ بحريتي، إذ إنه يبدو لي أنه جرّاء ما أقدمت عليه من مبادرات، وجدت نفسي مطالَبةً بانتقاء «فضاءات مفتوحة» بحيث يتوجب عليَّ، ضمنها، أن أصنع خياراتي وأن ألتزم بتلك الخيارات.هنا، أستدعي حديث مارتن بوبر عن التدريس وعن أهمية «الإبقاء على الألم في حالة صحو دائم» (1957،116)، لقد اقترحت أن يُبقى على ذهنية الألم التي وصفها في ذات المعلم وذات التلميذ على السواء، حتى ولو كانت قصص حيواتهم الذاتية لا تزال قائمة.وكما يبدو لي، فإن هذه المجابهات الحقيقية إنما تحدث عندما يتأتى للنوع البشري العيش ككائن واحد يقطن الزمن.

في هذا الزمن الذي ازداد فيه الاهتمام بالحَكايا وبث القصص كضرب من المعرفة (برينير،1986،13)،تغدو أمنيتي أن تسهم القصة التي يُبَاحُ بها هنا بدفع الناس إلى تحرير قصصهم ونضجها من ذواتهم

كتجارب تسهم بإيجاد مشاريع تمكّنهم من خلق هوياتهم. إنه لمن الضرورة لي، على سبيل المثال، استدعاء الطريقة التي كان يؤخذ علي من خلالها «أدبيَّتي» في تناول الفلسفة في أيام التدريس المبكرة لي في الكلية، إذ يبدو لي أن ذلك كان يعني أنني كنتُ أُرى كمصابة بمرض ما عند قيامي بتحليل حاسم وصارم للألاعيب اللغوية والجدالات التي سادت عالم الأكاديميا طويلاً.هنا، أجدني غير قادرة لا على تجسيد ميولي ولا على عزلها عن فاعليتي الإدراكية، تماماً كعدم مقدرتي على فصل مشاعري وتخيلي وما في من دهش الضمير عن العمل المعرفي الذي أنيط بي، وكعدم تمكُّني، كذلك، عن إقصاء سيرتي الذاتية وخبراتي عن التراكم في هذا العالم المتذرر والتصالحي. ثمة طريقة واحدة فقط جعلتني أبدأ بالتعرف على ما أوقفني عن انتهاج تلك النمطية من التحليل الذي كان متوقعاً مني من قبل:إنها محاولة سبر سياقات المشاغل المهيمنة وتعالقاتها بمسائل الجندر، والسعي إلى تسمية العلاقة بين الأعراف الأكاديمية ومطالب المجتمع التقني المتقدم، والعمل على استيعاء معنى حقيقي للعقلانية الأداتية في عالم الأطفال المحكومين بالمعاناة والأمهات المثقلات باليأس والآلاف الغارقين في فقرهم المدقع. الآن، بإعمال النظر حول هذا كله والتفكير ملياً في مواضعات الأشياء، يمكنني أن أحاول تحقيق حريتي في عالم ممتد،آمل أن يكون ذلك العالم الذي أستطيع أن أعمل فيه، كمعلمة ومجربة على تغيير كل ما هو لاأنساني، كل ما ينأى بالبشر عن ذواتهم.

وأنا لا أزال مأخوذة بمساءلات بوبر واضطرابه حول فكرة الألم، أشعر، على الأرجح، أن بحثي القديم عن اليقينية لا يزال يجتذبني، إذ أجدني،الآن،توّاقةً إلى طائفة من القوانين والأعراف والصياغات رغم إدراكي بأن بعضها إنما تم صكُّه وفقاً لمصلحة أولئك الذين يحتازون القوة والسلطة.إن فتنة هذه الطائفة لم تكن جرّاء إمدادها لي بعوائق في وجه النسبية وحسب، لكنما بسبب رغبتي الحلولية في ذاكرة الهامش أيضاً: فقد رغبت كثيراً أن أحقق حضوراً في عالم المكتبات الرفيع وأن ألقى قبولاً في صفوف المفكرين المرموقين ولدن مقاهي النخب المتحضرة. فلقد كان للنقد الذي وجه إليَّ في فترة مبكرة من حياتي أن أقصاني عن المحلي والخاص في حياتي نحو الكفاح من أجل تجسيد القيم الواعدة بإقامة منظومة تجاوزية، عرقياً وطبقياً وجندرياً.وكذلك الأمر،فإن البعض يدأبون على تذكيرنا اليوم مراراً وتكراراً كيف مكّنهم اعتقادهم الخاص بأن المصلحة الذاتية والحصرية يمكن أن يُقهرا على النحو الأفضل من خلال التمكن من «محو الأمية الثقافية» ذاتياً،الأمر الذي يتم تسويغه غالباً من خلال الفكرة الاستعلائية لـ «الجماعة القومية» (هايرستش،1987،137).برفض هذا الاعتقاد لأسباب عدة، لا أزال قادرة على الإحساس بالانجذاب إلى تلك الفكرة القائلة بأن ثمة ما «يمكن رؤيته من لامكان» (بيوتنام،1985،27).لقد اعتدت حُبَّ ذلك الشعور الذي يموضعني واحدةً من أسرى أفلاطون القدامى، أولئك الذي تحرروا من كهفه ليقفوا منبهرين بعلة الروح ومتنصلين من أشواق الجسد.وحينما عرفتُ بشكل أفضل، نحوتُ حتى إلى عشق فكرة الموضوعانية الكونية، الفكرة المؤدية الحقيقة الكلانية. لقد استهلك مني وقتاً طويلاً حتى أدركت أن «الأب العظيم الأبيض»،إلى جانب الحقائق السرمدية كلها،إنما كانت مُرَكَّبةً على صورة مماثلة لله الحيادي الذي يقلم أظافره في عمل جويس «صورة للفنان كإنسان صغير».لكن ذلك لم يتركني ساكنة في مواجهة الضياع، إذ إنني أعتقد أن «البؤس» الذي اعتاد جان بول سارتر الكتابة عنه، واصفاً ما الذي يعنيه أن تكون وحيداً بلا أعذار (1947)،إنما هو ضرب من الحنين إلى الوطن يصاحب هذا النوع من المعرفة، حتى وإن كان الشخص يعي أنه ليس وحيداً بالمعنى الحرفي للكلمة، وإنما مسكون بالمحاباتية المتذبذبة.ولعل في ذلك ما يسوِّغ توق العديدين، بمن فيهم طلابنا، إلى الاستقرار والأحادية والواحدية.إننا جميعاً نرغب في إرساء موطئ لأقدامنا في وجه التراتبيات المتداعية،عندما يتم تصوير العالم بتواتر على أنه «متواصل التغيُّر،متعدد التشكُّل،وناحٍ إلى الاختلاف بلا هوادة» (سميث،1988،183).وقد يكون السجال الدائر حول الدور اللائق، وحتى الوجود الصحيح، للمنحة الوطنية للفنون هو قرينة على ذلك،وكأنها ضرب من الدفاعية التي نراها بالنظر إلى المبدأ التقليدي في الإنسانيات أو المقاومة لمناهجية «الاختلاف».

ومن ناحية أخرى،تطلب الأمر صدمات عديدة في وعيي الذاتي لأدرك كيف أنني نشأتُ داخل العُرف (أو نظام المحادثة) وكأنما كان صندوقاً مقفلاً.محذراً من حصرية من هذا القبيل، يذكّرنا ميرليوبونتي بأهمية الإبقاء على أفكارنا مفتوحةً على الحقل والثقافة اللذين يجب أن يتم طرح الأفكار من خلالهما:«إن تقصُّد جوهر الأشياء بصورة مباشرة يغدو فكرة لااتساقية إذا ما تم التفكير بها سلفاً. فالذي يُعطَى تلقائياً في طريق سعينا نحوه إنما هو الخبرة التي تفصح عن نفسها تدريجياً، وتصحح نفسها، كذلك، عبر المراجعة الذاتية والحوار الحر مع الآخرين،الأمر الذي يجعلنا نطمئن إلى وجود تقدم مستمر» (1964،21).فبالإمكان،إذن،أن يتولد الحوار ويُثرى من خلال فعل الكتابة الذي يحاوله بعضنا، وصحفنا التي يتداولها بعضنا مع البعض الآخر.فقد ساعدني ذلك،حتى الآن،في البحث عن الكلمات،والاشتباك الدائم عن طريق البوح الذي يتبع المشاهدة. وبطبيعة الحال، فإنني إذ أعمل في سياق هذه العلاقات الحوارية مع الطلاب، أرغب بنقاش معنى علاقات الحوار، لكنني في الآن نفسه أود أن يجعلوا معتقداتهم الخاصة قيد التناول حتى نتمكن، سوية، من النظر من زوايا مختلفة، ومن صياغة المعنى، كذلك، من جوانب

عدة.إنني أرغب في أن نعمل معاً لاستجلاء الباطن، ولتنصيص ما يحدث (تحويله إلى نص)، وللتوسط فيما بيننا وبين الجدل الذي يبقينا على الحافة، بل ويبقينا، كذلك، على قيد الحياة.

لذا عليَّ مواصلة استدعاء خبراتي التي منحتني لحظات من الوجود، وتلك التي وارتني في قطن صوفي (كناية نادرة عن نعمائية تلك الخبرات)، وفي أملي بأن أتمكن من استحثاث الآخرين على على سرد حكاياتهم بطرق مماثلة. عليَّ أن أجادل ماذا تعني قراءتنا المشتركة، نحن وطلابنا، لنصوص «مفتوحة» بتعبير أمبيرتو إيكو.فالقارئ في حضور نص مفتوح، في اعتقاد إيكو، إنما يرفد مسوغات وجوده الخاص بمعناه الذاتي وثقافته المحددة و«مجموعة من الأذواق والميول والأحكام القبلية».وبتعبير آخر، فإن الاعتقاد الخاص للقارئ يؤثر في استيعاء النص ويحوره في آن معاً. وفضلاً عن ذلك، فإن «شكل العمل الفني يكتسب مصداقيته الجمالية بشكل كامل بالقياس إلى زوايا النظر التي يعرض من خلالها ويفهم حسبها» (1984، 490).ثمة روابط عديدة بين هذا الرأي وتناول روبرت سكوليس لمسألة التأويل في عمله «بروتوكولات القراءة»،حيث وصف أهمية البروتوكولات،و(ما أخذه عن بارثيس في «متعة النص» (1975) وما يماثله من فرايري من فكرة «إعادة كتابة النصوص التي نقرأها في نصوص حيواتنا...وإعادة كتابة نصوص حيواتنا في تلك النصوص» (1989، 155).

سأعطي الآن طائفة من الأمثلة، وهي ليست فريدة بالطبع، التي تبين كيف يؤمِّن لي استيلاد المعتقدات أثناء القراءة طاقة خاصة على قراءة مغايرة لعالمي الخاص. فنحن إن تمكنا من تعليم طلابنا الكيفية التي تتم من خلالها مَقْصَلة ما يتم اكتشافه بطريقة تُمَكِّنُ من جعله جزءاً من مادة الحوار في حجرة الصف، فإن هذا الأسلوب، مع مرور الوقت، سيدنينا من التساؤل عما هو وراء قراءة العالم إلى ما وصفه فراري بـ«تغييره بواسطة الإجماع، العمل التطبيقي» (1987، 35).لكننا، ابتداءً، يجب أن نجد طرقاً تمكننا من أن نكون حواريين في علاقتنا مع النصوص التي نقرأها سويةً ونتأملها ونفض مغاليقها كلٌّ مع الآخر تبعاً لنصوص حيواتنا المعاشة.

في الفصل السابع من هذا الكتاب، اقتبست مقطعاً من قصيدة إليزابيث بايشوب «في بيت السمك»،وقد كانت كتبتها للتعبير عن تجربة من أيام الطفولة مع رجل عجوز يصلح الشِباك في مسمكته، هناك، حيث تنهض خلفه الأشرعة وأشجار التنوب في مشهد معتم وبارد. إنها تتحدث عن تراطم المياه بحيادية وبرود على الصخور، وعن طعمها اللاذع الذي هو كطعم المعرفة الأولى:

«وتسيل من فم عالَمٍ صلبٍ وباردْ،
وتنزُّ من نهد تَصَخَّرَ للأبَد،
وتسيلُ..أو تجري/
لأن المعرفةْ
زمنيَّةٌ،تجري (إلينا) أو تطيرْ»
(1955]، 1983، 65)

الفكرة الصميمية،هنا،وهي أن تكون المعرفة تدفقاً أو تاريخاً،هي بالنسبة إلي تحدٍ ونقد،بصرف النظر عما قصدته إليزابيث بايشوب.فليس النظام وحده، بل جزئيات المعرفة المبلورة والقائمة بذاتها، هي أيضاً موضع للتساؤل هنا، وكأنما أريدَ أن تكون المعرفة التي لا أساس لها من الصحة مبرراً ذاتياً لتعيُّنها الوجودي.كل هذا أسهم في إحداث صدمة لي في القراءتين الأولى والثانية،كما أحدث بعض التَّهتُّك في الصناديق التي نشأت بين جدرانها، وشكل الفكر الذي أود العيش فيه.وعندما بدأ الطلاب بإفراغ ميولهم ومعتقداتهم الناجزة وذاكرتهم، وبخاصة في ردهم على المذاق اللاذع، والسفور الذي لا يحد، والجريان المذهل كشكل من أشكال حجر الزاوية، وجدت شيئاً ما يشبه نصاً مشتركاً قد تخلَّق بيننا، حيث بدأنا، رغم تنوُّعنا، نقرأ ونقرأ، وحتى نعيد الكتابة من جديد.

شيء ما مماثل يحدث عند قراءتي لقصيدة بايشوب «في غرفة الانتظار» (وقد اقتبستُ منها سابقاً أيضاً)، إذ تحدِّق الطفلة إليزابيث، التي قاربت السابعة، في الحضور المتنامي لمن قصدوا غرفة الانتظار في عيادة طبيب الأسنان، وتشعر بـ«حس التناقص والاستدارة والعالم الدوراني»،وتفكر:

«...أنتِ أنا،
أنتِ إليزابيث،
أنتِ واحدةٌ منهنْ.
لماذا أنتِ ملزمةٌ بأن تكوني واحدةً أيضاً؟
بصعوبةٍ تجاسرتُ على النظر لأرى ماهية ما كنتْ»
(1955]، 1983، 159)

إن الأسلوب الاستفهامي، والخصوصية المؤلمة، والإحساس بالتضاؤل في المكان، تقدِّمُ مجتمعةً زاويةً أفضل للنظر تودي بالنظامية والكمال. وفي الحين نفسه، بالنسبة لي ولمن أتعلم معهم على الأقل، فإن هذه القصيدة استحثت وعينا وأيقظته على جدل لا ينضب، إذ تملَّكنا شعور بأننا على الشفير تماماً، وأننا جميعاً نحاول نحت الفضاء الذي يمكننا في رحابه أن نكسر فرادة الصمت وحيرة الاختيار.

في روايتها «كاساندرا»،استحدثت كريستيا وولف راويةً استطاع إقناعنا بأن من يُقْصَوْنَ يعرف كل منهم الآخر ويفهمه (1984).لقد

جعلني هذا الاعتقاد أفكر ملياً في الطرق التي استطاعت من خلالها، معرفتي الشخصية وصمتي ولايقينيَّتي التي شعرتُ بها أثناء بحثي عن صوتي الخاص، أن تساعدني على البدء في إدراك ماهية العالم بالنسبة للأقليات:السود ،رجالاً ونساءً،القادمون الجدد من الشعوب الإسبانية،وغيرهم.وفي رواية أخرى،تحدَّث راوية رالف إيللسون،في روايته «الرجل الخفي»، عن أهمية منح الآخرين صفة التميز والوضوح بأكثر من الخفاء وامتناع الرؤيا، إذ يمكنني أن أتعرف على واحدٍ كالراوية وعلى أناس آخرين أصادفهم في حياتي المعاشة.فأنا بحاجة إلى الرؤيا من خلال نواظرهم ونواظري في آن معاً إن كان هؤلاء الأشخاص يعتزمون الانخراط في حوار ما، أو يرغبون في منح رموزهم الخاصة لفك الشفرة.هنا، أعتقد بأن العامل المفتاحي في «الرجل الخفي» إنما يتموضع في استهلال الراوية للرواية وإنهاؤه لها بفكرة «تحت الأرض» (متناولاً،على ما يبدو «ملاحظات من تحت الأرض» لدوستويفكسي كنص مفتوح).وعند الوصول إلى الصفحات الختامية،أقرأ:«إنني ذاهب تحت الأرض،هزمتها جميعاً باستثناء العقل، العقل. فالعقل الذي تم تصوره كخطة، يجب ألا يفقد أبداً بصيرة الهيولى قبالة ما تم تصوُّرُ ماهيةِ المادة بأنها عليه. ذلك هو حال الأفراد والمجتمعات كذلك. ولذا، عليك مواصلة سعيك لإعطاء شكل للهيولى التي تقطن في ثنايا مادة يقيناتك،عليَّ أن أطلع للخارج، عليَّ أن أظهر» (إيللسون،1952،502).ليس إيللسون وحسب هو من أبرز أسئلة قد تؤثر في ذهنية القارئ وعينِ قلبه،تلك التي تصيِّرُ الناس إلى الوضوح أو الخفاء، وتلك التي تتيحُ اكتشافاً مابيَن-نَصِّيٍّ جديداً (قد لا يكون مريحاً تماماً)،وتلك التي تمكننا من إعادة كتابة «ملاحظات من تحت الأرض» حالها حال رائعتي «العالِم الأمريكي» لـ إميرسون و«مغامرات هاكيلبيري فن» لـ مارك توين،ضمن نصوص حيواتنا.

وماذا بعد؟ماذا وجدتُ من رؤى جديدة في القراءة؟ لعل أعمال توني موريسون تؤسس قاعدة لصدمات مذهلة تؤمِّن لنا تطوير أنماط أخرى من المعرفة المضادة للخلفية التي صُكَّت على هيئتها حيواتنا المعاشة.على سبيل التمثيل، أستدعي، هنا، قصة بيكولا بريدلوف في «العين الأكثر زرقة» (1970)،والآلية التي استطاعت من خلالها بيكولا أن تودي بحكايتين ثقافيتين مركزيتين وطاغيتين،هما:«ديك وجين» والصورة الأسطورية التي ارتسمت لـ شايرلي تيمبل وعيونها الزرقاء.و بيكولا هذه، فتاة سوداء صغيرة، غير محبوبة من قبل أمها، وغير مقبولة من قبل مجتمعها. إنها، ببساطة، فتاة واثقة من قبح هيئتها، وراغبة قبل كل شيء في أن تبدو كـ شارلي تيمبل بعيون زرقاء لا يفارقها البريق. إن كانت عيونها مختلفة، فهي بالضرورة مختلفة كذلك، ولربما لن يتصرف والداها تصرفات سيئة قبالة عيون جميلة كهذه...لقد تحطمت بيكولا وأوشكت على الجنون.

ونحن،هنا، نُتْرَكُ بمصاحبة إحساس مُلِح بأن القصة المركزية انتهت، إذ إن سعة انتشار حقيقة إنسانية ما قد تكون قاتلة لبعض الأشخاص، على اختلاف نوعية العجز، سمعياً كان أو بصرياً، أو بالتأكيد لفتاة، كبيكولا، تلتهمها الإساءات.أمثولة الحقيقة الإنسانية، بالنسبة لبيكولا، هي زوج من العيون الزرقاء وحسب، وبالرغم من غرابة مقاييسها وخصوصياتها لكثير من القرَّاء، إلا إنها لا تزال تدفع بنا إلى إعادة كتابة أجزاء بعض نصوص هذا العالم.

لعل الزاوية الفضلى في الرواية للنظر إلى بيكولا المكروهة تمنحها رؤيا طفلين آخرين «محبوبين»،بكلمات الراوية كلاوديا،حيث يدافعان عن سلوكهما الفتي بـ«اعتبار كل خطابٍ شفرةً سائغة للتفكيك، وكل موضوع إيمائي مادةً للتحليل الحذر» (149). إنهما فخوران ومدَّعيان لأنهما، على خلاف بيكولا، أحياء:«إننا نحاول أن نراها دون أن ننظر إليها، ودون أن نقترب أبداً من ناحيتها.ليس لأنها كانت سخيفةً أو منفِّرة، أو لأننا كنا نخشاها، لكننا لأننا خطَّأناها..زهورنا لن تنمو أبداً، لن تنمو». بمرور السنين واختيار بيكولا لطريقها، واشتراعها لها «عبر كل ما في العالم من ضياع وجمال كانتهما هي ذاتها»، أحسَّ الرواة بأنهم عوفوا تماماً بعد أن غسلوا ذواتهم على بيكولا:«بساطتها تزيِّننا بالرزانة، خطاياها تمسحنا بالطهارة، ألمها يوحدنا بالعافية، حمقها يوهمنا بطاقات ظرافتنا، وحتى أحلام يقظتها نتوسلها لإسكات كوابيسنا» (159).ثمة مشاعر غير بعيدة عن هذا القبيل في «سيولا» لـ مورايسون،إذ تعتقد نيل، صديقة سيولا، أن عودة الأخيرة إلى البيت إنما هي كاسترداد عين من جديد، ذلك أن سيولا بالنسبة لنيل «اعتادت على محادثة نفسها..إنها لم تكن أبداً منافسة لأحد، إنها، ببساطة، تساعد الآخرين على تعريف أنفسهم» (82،1975).

هل يمكن أن يكون ذلك في صراعنا لتعريف ذواتنا، أن يدخل غرباء، على شاكلة سيولا، دورة الجدل ساعة اختيار من نحن؟ أو لو أن بإمكاننا أن نكتشف، سويةً، ما هو مغاير لتنوع مشاربنا، أن نكتب معاً، وأن نتصرف كلٌّ وفقاً للحقائق الوجودية للآخر لاستيلاد وسطيةِ حنا آرندت (182،1958).تقول كاثرين ستمبسون «إن تحرر كل فرد هو ملكيته الخاصة» (35،1989)،أعرف ذلك،ولكنني أرغب بالذهاب، معها ومع أولئك الذين يحيطون بي، أبعدَ نحو فضاءات مفتوحة، نحو مجتمعات تكون فيها علاقاتنا أرحب وأعمق.

إن قابليتنا لما نحاول أن نكونه وحسب، بطبيعة الحال، تمكننا من الإدراك فقط على أنغام افتراضاتنا الذاتية وأحكامنا المسبقة ومخزون ذاكرتنا الخاص، ولربما تصدق علينا، هنا، تسمية توني موريسون «الذاكرة المعادة» في رواية «المعشوقة» (91،1987).ليس ثمة معلومات يمكن احتيازها أو تشربها بوعي أجوف، إذ إننا لا نستطيع أن نُسَاكِنَ أفكاراً إلا من خلال جماعاتنا التأويلية، ذلك إن استطعنا

أن نتعلم تسمية الاستراتيجيات وجعلها مفهومة لمن نحن معنيون بإقامة علاقة للفهم واستيلاد المعنى معهم. إننا بحاجة إلى مواصلة توسيع هذه الجماعات إلى أن نتمكن من تجسيد دولة علمانية «ذات معنى مفتوح للمجتمع يتم انتزاعه كانتزاع نصر، وجماهير فيه يتم التعبير عنها كجنس بشري» (سعيد،1983، 152).

ولعل ذلك يعني، من جملة ما يعنيه، أن ما أطلقت عليه إليزابيث فوكس-جينوفيس «ثقافة النخبة» يجب أن يتغيَّر.هذه الثقافة التي تم السعي إلى إيجادها على أيدي باحثي الذكور البيض، الثقافة التي «تم إعمالها في المرأة والطبقات الدنيا، وبعض الأعراق البيضاء بصورة مماثلة، كما تم إعمال الإمبريالية في الشعوب المستعمَرَة. وفي أسوأ طبعاتها، تجاهلت قيم الآخرين كلها ونصَّبت من نفسها أمثولةً مطلقة». لقد أوضحت فوكس-جينوفيس، أيضاً، آلية عمل أي مبدأ آخر:فـ«أن تتكلم القوة بلسان جماعاتي، إنما ينتج عن علاقات وصراعات جندرية واجتماعية، وليس عن دورة الطبيعة. إن انتصارات التاريخ هي التي موَّضَت العرف النخبوي الجمعي وأرسته، وليس أي عامل آخر» (1986، 140).هنا، أجدني مكرهةً على الرجوع إلى تناقضات حياتي الشخصية عندما قرأتُ ذلك، كما أجدني راغبة بالتذكير، ثانيةً، بالمعاني المتمايزة للمعرفة القرائية. فالمعرفة القرائية، كمجموعة من التقنيات، أسهمت في بعض الأحيان بإسكات بعض الأفراد والحيلولة دون تأهيلهم. ولذا، فإن التزامنا اليوم هو تأمين طرق لتمكين الشباب من إيجاد أصواتهم بغية فتح فضاءاتهم الخاصة، ولترميم تواريخهم بكل ما فيها من حقائق وتذرر. ومن ثم إيلاء الاهتمام إلى أولئك الذين في الهامش، ذوي الأصوات المخمدة على الدوام في أمريكا اللاتينية والشرق الأوسط وجنوب-شرق آسيا.

إن هذا كله ليس نزوعاً رومانسياً ولا طرحاً ساذجاً لمسألة الإرادة الخيِّرة، فنحن،كمعلمين،سنواجه آلاف الآلاف من القادمين الجدد في السنوات القادمة:بعضهم قادم من ظلمات الغيتوهات الخطرة والمهملة، وبعضهم منهك من وطأة المعاناة تحت نير الدكتاتورات، وبعضهم آتٍ من نواحي المخيمات المهملة، وبعضهم لا زال يسيطر عليه صلف البحث عن نجاحات اقتصادية في مكان آخر. النصوص لا زالت هنا، وعلينا أن نجعلها قيد التناول، أن نمنح البروتوكولات ونبقيها مفتوحة. علينا أن نتيح للطلاب ان يشكِّلوا تجاربهم متوسلين هذه النصوص، وهذه الكتب التي أنتجها رجال ونساء قبلهم. لقد تحدث سارتر عن هذه الأعمال بوصفها «عطايا»،فقال:«إن أُعيطتُ العالمَ بكل جوره، فعلي ألا أتأمله ببرود، لكنما عليَّ أن أبث فيه سخطي، وأن أفتض ما فيه من جور وأصعِّده لأظهره على طبيعته كجور يتموضع في مجموعة من المفاسد التي يتوجب استئصال شأفتها. ولذا، فإن عالم الكاتب يجب أن يباح به، وبكل ما فيه من عمق، لاختبار القارئ وتقديره واستثارة سخطه.هنا،يغدو الكرم بالحب وعداً بالتحصُّل، ويصير الكرم بالسخط وعداً بالتغيير، وملثهما يكون الكرم بالتقدير وعداً بالانبعاث. ولكن، على الرغم من كون الأدب شيئاً والفضيلة شيء آخر مغاير له ،إلا أننا لا نزال نستطيع تمييز الفضيلة الأخلاقية بوضوح في قلب الضرورة الجمالية. واستناداً إلى ذلك، فإن من يكتب يعرف، بالضرورة وبالحقيقة المجردة، أنه من خلال فعل الكتابة إنما يجازف بتحمل تبعة مُشْكِلِ الكتابة، الذي هو حرية القارئ. ولأن القارئ حينما يفتح الكتاب يتعرَّف، بداهةً، على حرية الكاتب،فإن العمل الفني، أياً كان جانب مقاربتك له، إنما يكون فعلاً وثوقياً في حرية الرجل» (1949، 62).

لكم وددت لو استبدل سارتر «الإنسان» في موضع «الرجل»، لكنني لا أزال أرى كم كان عمق أهمية عرض سارتر للأدب على أنه تقديم مجازي لـ«لعالم الذي يتطلب، إلى حد ما، حرية الإنسان».ولعلني أجد في هذا الترشيم أمثولة نعمائية حتى لفعل التدريس نفسه، على اعتبار أن التدريس إنما هو طاقتنا على إيجاد الكوَّة المبتغاة حين نكون معنيين، بداهةً، بالإبقاء على فعل الاختيار في حيز التناول والتداول في آن معاً.هنا، تغدو خبرة القراءة وفعل التدريس، في اجتماعهما، ضرباً من الجدل.

ختاماً، أود التأكيد ثانية على ضرورة الإحساس بالمعرفة القرائية كالتزام اجتماعي، إذ يتم البحث عنها في حجرات الصفوف الجماعية حيث يجتمع الأفراد سوية «في القول والفعل» لتخليق شيء ما مشترك بينهم (آرندت،1958، 19).هناك، ولا محالة، سيكون عزف لموسيقى الاختلاف التي تتمكن المعاني أن تبزغ من خلالها، وهناك سوف تكون، بل يتوجب أن تكون، لحظات من المعرفة ولحظات من الشك.لكنما ،ستكون هناك، أيضاً، مساءلات لا تُحَد بتنوع الأفراد الباحثين عن ذواتهم في مساحة حريتهم الخاصة. أفكر، ثانيةً، في الطاعون، وفيما قاله تارّوي:«أن كل مشاكلنا إنما تنبع جرّاء فشلنا في توظيف الألم، كلغةٍ للوضوح الفذ. ولذا، فقد عزمت على اعتياد ممارسة القول والفعل بجلاء تام..وقد كان ذلك سبب قراري أخذ جانب الضحية، حتى أُضَائِل حجمَ الخراب» (كامو،1948، 230).وبطبيعة الحال، فإن هذه المقولة هي مفصل الرواية:في الزمن الكارثي، عليك تلبُّس دور الضحية.هذه هي أزمة كارثية بالنسبة لنا، ولذا، فإن علينا، أن نكون متيقظين ومتنبهين حال فتح النصوص والفضاءات، إن أردنا تأليب الشباب على أن يكونوا أحراراً.

تقديم وترجمة: عبد الرحيم الشيخ
مركز القطان للبحث والتطوير التربوي

(نظرا لكبر الحيز الذي تشغله «مراجع» المقالة فقد ارتأينا عدم إثباتها في نهاية المقالة، يمكن الحصول عليها عبر الاتصال بالمركز)